العالم الخارجي

كما يراه الفيلسوف الانكليزي برتراند راسل

بقلم الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

لا اعني بالعالم الخارجي عالم ما بعد الطبيعة او عالم الغيب او عالم الملكوت والجبروت ، الى غير ذلك من الاسماء التي يشاء ان ينتحلها خيال بعض الفلاسفة ورطانة رجال الدين واسجاع الكهان وتراتيلهم . وانما اعني عالم الحس والواقع ، في مقابل العالم الباطن ، عالم الذات والفكر . ولقد وقع اختيارنا على برتراند رسل Bertrand Russell بالذات لانه خير من يمثل الفلسفة الانكليزية المعاصرة، تلك الفلسفة التي لا تؤمن الا بما تقدمه لنا التجربة والمشاهدة ولا تقر الا المنهج التحليلي المنطقي في البحث .

وتبعاً لكثير من الفلاسفة ولبرتراند رسل في كتاباته الاولى يجب ان نفرق بين الاحساس الذي هو امر عقلي ، عن موضوعه الذي هو بقعة لونية او صوت او اي شيء آخر[1] . فاذا ما اقر هذا التفريق يُسمى موضوع الاحساس «المعطى الحسي» sense-datum او «الموضوع الحسي» sensible object . لكن برتراند رسل قد عدل عن هذا التفريق اخيراً واعتنق فكرة الوحدة التامة بين الاحساس والمعطى الحسي ، بين الذات والموضوع . فلقد بسط في كتابه الرائع تحليل العقل The Analysis of Mind الاسباب التي ساقته الى هذه النظرية والنتائج التي وصل اليها . وهو يرى مع المدرسة الاميركية التي يمثلها وليم جيمس والواقعيون الامريكيون المحدثون التي وصل اليها . وهو يرى مع المدرسة الاميركية التي تُعد نظريته توسعاً لها – يرى ان المادة الخام Stuff للعالم ليست عقلية ولا مادية ، بل مادة « خام محايدة » Neutral stuff قد صدر عنها العالم . ولن نعرض الان لهذه النظرية الضخمة ، بل نجتزىء بنظريته التي يفسر بها الاحساس لعلاقتها بموضوعنا الآن على ان نعود في فرصة اخرى لمعالجة تلك .

يجب ان نعلم انه عندما يتعرض رسل للموضوع الحسي لا يعني ذلك الشيء الذي هو في نفس الوقت مرئي ويمكن لمسه كالمائدة مثلاً : يراها كثيرون دفعة واحدة ولها قوام ثابت . فكل ما يقصد بتلك الكلمة انما هي البقعة اللونية التي لا نراها الا عندما ننظر الى المائدة ، او تلك الصلابة الخاصة التي لا نحس بها الا عندما نتكىء عليها ، او ذلك الصوت الذي لا نسمعه الا عندما نقرع عليه . فالشيء في ذاته الذي يقول به الفيلسوف والمادة التي يقول بها عالم الطبيعة هما علة الموضوع الحسي والاحساس معاً (اذا صح تميزهما احدهما عن الآخر). وهنا يتساءل رسل : « ما هي الاسس التي يقوم عليها هذا الزعم ؟ » .

فيجيب ان هذا الزعم مصدره امران : (١) الاعتقاد بان الشيء يمكن ان يظل في ذاته موجوداً بصرف النظر عن شعورنا به وهو الذي يعرض نفسه على الاحساس ، (٢) ان احساساتنا تتغير غالباً تغيرات يبدو انها تتوقف علينا اكثر مما تتوقف على اي شيء آخر يُفترض قيامه بذاته مستقلاً عنا . اذ نحن نزعم من غير ان نتبصر بالامر ان كل شيء هو كما يبدو لنا ، واننا اذا اغمضنا اعيننا ، فان الاشياء التي كنا ننظر اليها تظل كما كانت رغم اننا لم نعد نراها. ان هذا الزعم لا مبرر له في نظر فيلسوفنا . فاذا اردنا ان تكون لنا فكرة حقيقية عن العالم الخارجي فعلينا الا نسخو بالفروض ولا نلقي القول جزافاً .

فالمائدة التي نراها من جهة ما لا تبدو لنا على نفس النحو من جهة اخرى . هذا ما نراه . لكننا نفترض وجود مائدة قائمة بذاتها هي التي تنبعث عنها هذه الظواهر . وتظل كذلك ما دامت السموات والارض ... اننا عندما ندور حول المائدة فان احساساتنا البصرية ما تنفك تتغير . وهكذا فاذا وقع نظرنا على بقعة لونية تثير الاهتمام فانها لا تختفي فجأة ليحل مكانها شيء آخر يختلف عنها اختلافاً تاماً ، وانما يكون ذلك تدريجياً .

هذا وليس الدوران حول المائدة وحده هو الذي يغير في ظواهرها . فالنظارة الزرقاء والميكروسكوب يغيران من ظواهرها البصرية . بل هي تصبح مائدتين بالضغط على احدى العينين . وكذلك الاشياء البعيدة عنا تتغير ظواهرها بتغير الحالة الجوية . والحالة الفسيولوجية لها نفس التأثير ايضاً .

---

١ انظر كتابه: معرفتنا بالعالم الخارجي طبعة عام ١٩٤٩ صفحة ٨٣ فما بعدها
Our Knowledge of the External Word by Bertrand Russell, London

وقل الامر نفسه في اللمس . فلقد علمتنا التجربة اننا حيث نجد شيئاً فاننا نتوقع ان يبعث الينا من طريق اللمس باحساسات الصلابة والليونة والشكل . وهذا يسوقنا الى الظن بان ما نراه هو في العادة شيء ملموس ، وان له سواء لمسناه ام لم نلمسه صلابة او ليونة « نتوقع » الشعور بها اثناء لمسه ، وانه يظل موجوداً بعد ان نكف عن لمسه . لكننا اذ نظن انه يجوز استنتاج ما عسى ان تكون عليه إحساساتنا اللمسية نقوم بعمل لا مبرر له من منطق او علم ؛ فليس من الضروري منطقياً ان نفترض صفات لمسية لم نشعر بها بعد . فكل ما نعرفه هو ان الظاهرة البصرية التي تعنينا اذا انضم اليها اللمس ينتج عنها احساسات معينة يمكن تحديدها بالضرورة بتعابير نشتقها من الظاهرة البصرية نفسها . وإلا تعذر علينا استنتاج هذه الاحساسات من الظاهرة البصرية ، وهكذا فما نصل اليه بالتجربة هو ان التغيرات التدريجية في بعض المعطيات الحسية تلازمها تغيرات تدريجية اخرى ، او ان التغيرات التدريجية في حركات جسمنا ترتبط بسائر المعطيات الحسية . فكل ما ندركه اذن انما هو ارتباط Correlation بين احساسات عقلية واحساسات يحسها جسمنا وتغيرات في الاحساسات البصرية . هذا كل ما نقتنصه بالتجربة عندما نتحرر من افتراض « اشياء تظل قائمة » تنبعث عنها ظواهر متغيرة . واما الشيء القائم بذاته فليس لنا الى اقتناصه من سبيل .

لذلك لا وجود البتة لما تسميه النظرية القديمة « خداع الحواس » فالموضوعات الحسية موضوعات حقيقية حتى ولو عرضت لنا في الاحلام . فما الذي يجعلنا نقول في هذه انها غير حقيقية ؟ لا شيء اللهم الا ارتباطاتها الجديدة بموضوعات الحس ارتباطاً لا عهد لنا به في حال اليقظة . فمثلاً احلم اني في امريكا فاستيقظ فاجدني لا ازال في لبنان واجدني لم اقم برحلة عبر الاطلنطي ، وهو عبور مرتبط ارتباطاً تاماً بأي زيارة « حقيقية » لامريكا . اننا نقول ان الموضوعات الحسية « حقيقة » عندما يكون ارتباطها بسائر الموضوعات الحسية متفقاً مع ما عهدناه في خبرتنا اليومية ، فعندما نفتقر الى هذه الصفة نقول انها « خداع » . الحق ان ما هو خداع ليس الا ما يتولد عن هذه الموضوعات من استنتاجات ، وهي في حد ذاتها ليست باقل حقيقة من اي موضوع حسي يعرض في اليقظة . والعكس صحيح ايضاً . ولذلك فلا نتوقع ان تكون الموضوعات الحسية في حال اليقظة أمعن في الحقيقة الباطنة Intrinsic reality منها في الحلم .

لننتقل الى لب نظرية فيلسوفنا ، فكل ما عرضه حتى الان مزيج من السوفسطائية ومذهب الظاهراتية Phenomenalism.

ان كلا منا يرى في كل لحظة عالماً ثلاثي الابعاد على اقصى ما يمكن من التعقيد . وهذا العالم خاص بالذات التي تراه اذ لا شيء البتة يراه اثنان في وقت واحد معاً . فعندما نقول ان اثنين يريان شيئاً واحداً ، فاننا نكتشف دائماً - بسبب اختلاف المواضع التي يرى منها هذا الشيء - فروقاً بين موضوعاتهم الحسية المباشرة مهما كانت هذه الفروق طفيفة . لذلك فالعالم ثلاثي الابعاد الذي نراه شخصي ليس فيه مكان واحد مشترك بينه وبين العالم الذي يراه شخص آخر . اذ الامكنة لا تتألف الا من الاشياء التي توجد فيها او حواليها . ومن هنا نستطيع ان نفترض انه برغم الفروق القائمة بين هذه العوالم المختلفة ، فكل عالم منها يوجد بتمامه كما نحس به بالضبط ، وانه يمكن ان يوجد كما هو ولو لم نحس به . ثم نمضي في فرضنا فنقول بان ثمة عدداً لا نهاية له من هذه العوالم لكننا لا نحس بها بالفعل . فاذا جلس اثنان في غرفة ، فان عالمين يكادان ان يكونا متشابهين يرتسمان امامهما . فاذا جاء ثالث وحل بينهما ، فان عالماً ثالثاً لا يلبث ان يرتسم بين الاثنين ايضاً . حقاً انه لا يجوز لنا ان نفترض ان هذا العالم الثالث بالذات كان موجوداً من قبل ، لان وجوده متوقف على الاعضاء الحسية للقادم الجديد واعصابه ودماغه ، الا انه يجوز لنا ان نفترض ان « بعض » جوانب هذا العالم كانت موجودة في تلك الجهة ولو لم يحس بها احد ، وسنطلق على مجموعة جوانب العالم باكملها سواء ما كان منها محسوساً به او غير محسوس « نظام المنظورات » The System of prespectives وسنقصر كلمة « العوالم الخاصة » Private Worlds على هذه الجوانب التي نحس بها بالفعل . وهكذا فالعالم الخاص هو « منظورة محسوس بها » ويمكن ان يقوم هناك عدد لا حصر له من المنظورات التي لا يقع عليها حسنا .

يتفق لشخصين احياناً ان يحسا بمنظورتين متشابهتين جداً فيصفانهما بالفاظ واحدة . فيقولان مثلاً انهما يريان مائدة واحدة لان الفروق بين المائدتين طفيفة ولا اهمية لها من الوجهة العملية . واذن فمن الممكن ان نعقد علاقة مشابهة بين عديد الاشياء التابعة للمنظورة الاولى وعديد الاشياء التابعة

للمنظورة الاخرى . فعندما تكون المشابهة كبيرة جداً نقول ان جوانب المنظورتين متجاورة في المكان Space لكن ذلك المكان الذي يتجاوران فيه يختلف اختلافاً تاماً عن المكانين اللذين داخل المنظورتين ، فما هو الا علاقة تربط بين المنظورتين ، وهو لا يوجد في اي منهما ، فلا يمكن لاحد ان يحس به ، واذا اريد تعرفه فلا يكون ذلك الا بطريق الاستنتاج . ونستطيع ان نتخيل بين منظورتين محسوستين متشابهتين سلسلة من المنظورات الاخرى بعضها لا نحس به على الاقل وان نتصور بين كل من هذه منظورات اخرى اشد تشابهاً . وعلى هذا النحو فان المكان الذي قوامه العلاقة بين المنظورتين يصبح متصلاً متماسكاً — واذا شئنا — ثلاثي الابعاد .

نستطيع الان ان نعرف « الشيء » الذي ندركه بقوة تمييزنا . ان تشابه المنظورات المتجاورة يساعدنا على ان نعقد صلة بين كثير من الموضوعات Objects التابعة للمنظورة الاولى والموضوعات التابعة للمنظورة الاخرى ، اي بين الموضوعات المتشابهة . فلنأخذ موضوعاً تابعاً لمنظورة ما ، ولنكون مجموعة من كافة الموضوعات التي ترتبط به في كل المنظورات . هذه المجموعة هي عين « الشيء » الذي نراه الان بقوة تمييزنا . وهكذا فالجانب من «الشيء» انما هو عضو في مجموعة الجوانب التي هي « الشيء» في هذه اللحظة (وهنا يستدرك رسل فيقول ان الارتباط الزمني بين مختلف المنظورات يثير صعوبات من نوع ما يشاهد في نظرية النسبية ، لكن رسل يريد ان يصرف النظر عنها الان !) . ان حقيقة « الشيء » هي جوانبه التي تتبدّى لنا ، واما « الشيء » في ذاته فانما هو بناء منطقي .

وهكذا يمعن برتراند رسل في تطبيق هذه النظرية على المكان والاشخاص الآخرين . فيقضي على الفرض القائل بوجود الآخرين كما قضى على فرض وجود اشياء بذاتها . ثم يستدرك (ص ١٠٤) فيقول انه لا يستطيع ان يتخلص من فرض وجود اشخاص آخرين مثله مهما حاول ! وهو يزعم ان هذا المذهب يمكن به تفسير الوقائع الحسية الخام والوقائع الفيزيقية والوقائع الفسيولوجية وانه ليس مستحيلاً من الوجهة المنطقية . وهو لا يفوته ان يشير الى ان كثيرين قد شكوا قبله في صحة انطباق معطياتنا الحسية على الحقيقة الموضوعية الا انهم لم يمعنوا في الشك امعانه هو . ويضيف الى ذلك ان مذهبه يفسر عدداً من الحقائق اخطأ فيها الكثيرون قبله .

محمد عبد الرحمن مرحبا

الطريق القديم

ربيع

طريقنا القديم سلامنا عليك
ألم تزل هناك تطل من يديك
لبلابة السياج ؟

طريقنا القديم يا ملعب الصبا
يا مسبح الخيال يا كوكبا خبا
من افقنا شهيد

طريقنا القديم أتذكر العهود
أتذكر الربيع والصبية الرقود
في ظلك الوريف ؟

طريقنا القديم أتذكر السمر
وحلقة الغناء إذ يبسم القمر
في أفقه البعيد ؟

أتذكر الغلال وموسم الأمل
والنورج الدؤوب لا يعرف الملل
في البيدر الكبير ؟

أتذكر الزهور في مارس الدفيء
نصوغها عقود للفائز الجريء
في قفزة السياج ؟

أتذكر الضجيج في عيدنا الكبير
وثوبي الجديد والمأمل العسير
تناله النقود ؟

طريقنا القديم سلامنا عليك
بقيت في أمان تطل من يديك
لبلابة السياج

القاهرة **كمال نشأت**
من رابطة النهر الخالد